الرفيق والطريق

قصة بقلم عبد الفتاح حسن

ـ « الان يا آنستي اسمحي لي ان اتركك ، لقد انتهى دوري معك ، وعلي ان الحق ببعض اعضاء الجهاز . »

ونظر الي بتحد وهو يغالب ابتسامة قاسية كانت تتشبث بجوانب فمه .. ثم تابع :

ـ اليوم نجري اجتماعا خطيرا وعلى مستوى ارفع وأدق مما سبق. « وثبت عينيه في وجهي » « وقد راى زعيمنا » (واحنى راسه قليلا امامي) « ان تكوني خارج البيت ، هل تعلمين يا أمل .. انه يؤلمني حقا الا تكوني بيننا اليوم .. لعل ثقة الزعيم بك قد تغيرت عن قبل فاصبحت، هذه المدة ، لقلافة . » (واخذ يؤرجح يده امامي قمرة .)

كان ساخرا مستخفا كشأنه دائما عندما يقوم بمهمته . كاني به يضع القنبلة ـ هذه المرة ـ في قلبي ، ويفجرها فينثره اشلاء مينة ونتفا حقيرة على جدران نفسي المتصدعة . وكاني به يحلو له ان اتحطم امامه وقد كنت الى ايام خلت الحب الوحيد .. والكبير ، ولكني لم اشعر نحوه باي حقد .. بل أثار في نفسي بدل الحقد شفقة واسى . تألمت لاجله لاني لم اعد استطيع الا ان أتألم ، فسمير ، حبيبي ، قد انتهى .. هكذا قررت ، ولم يعد بامكاني ان امنحه الفرصه الاخيرة فانجيه.. بل اراني اتمنى لو ادفعه دفعا الى اللحاق برفاقه لافضي عليهم جميعا .

لقد انتهت آماد التمزق بين الواجب والعاطفة ، وانتصر الواجب اخيرا على اشلاء فتاة ضعيفة ، ضائعة ، اليوم ساضع نهايات لاشياء كثيرة ولاشخاص كثيرين .. لن يؤرق مدينتي بعد اليوم ارتجاج صيتهي التخريب والتفجير . وسينتهي ابي .. وسينتهي سمير ـ الشاب الذي كان يمكن ان يشير الى تباشير وعي في بلدي ـ وسانتهي انا بنهايتهما اسوا نهاية .

وانتشلني سمير من بئر يأسي بقوله :

ـ اليوم سنتعرف على زعيم زعيمنا ، وسنلهو قليلا بمصير البلد وحيوات الكبار فيه .

« اليوم ارتقي درجة فيصبح عملي على صعيد ارقى وأشمل . طالما تمنيت ان اعمل شيئا ، غير وضع قنبلة زمنية في دار صحيفة او امام متجر او امام دار سفارة ، فهذه اعمال صغيرة تافهة .. انها اعمال جبناء .. سيكون ميداني الرؤوس الكبيرة .. والمسؤولين الكبار ... ولكني ساشتاق ولا شك الى العابي الاولى ، فهي بداية الطريق .. (والقى يدا ثقيلة دافئة فوق يدي) وهي التي جمعتنا معا . »

ونظرت اليه بهدوء ، اجل انها هي التي جمعتنا معا وبدلت ركود حياتي حيوية دافقة .. وقلقا جميلا كلما تأخر ذلك الصحفي النشيط عن زياراته المعتادة لابي والاجتماع اليه في المكتبة . وقربت المناسبات بيننا .. وعرفت انه شاب سوري مبعد عن وطنه لانتمائه الى احد الاحزاب المنحلة وانه نادم تائب بعد ان وضع اصبعه على جرحه ، ولكنه لايستطيع الرجوع في وقت لايعتبر فيه الندم دليلا صادقا على التوبة، وها هو يبني حياته من جديد على اساس عربي صميم يدعمه الوعي ويقويه الايمان .

ورست عواطفي في مرفا مبادئه تمهد لها رعاية ابي وتباركها .

ويوم تكشفت امام عيني حقيقة والدي البشعة وعرفت انه جاسوس حقير لايتورع عن استعمال ابنته اداة بريئة فيجازف بها ، ويبيع وطنه للاعداء بحفنة دراهم .. يوم اكتشفت ذلك ، خيل الي اننا ـ سمير وانا ـ نتخبط في خضم حماقة كبرى .. واننا ضحيتان بريئتان تمزق وشائج التفاهم في وطننا الحبيب ونميت اغراس الحب الندية في ارضه الغالية دون ان ندري .. ولجات الى احضان سمير ابكي بين يديه حبا عظيما لاب كان عظيما وانشبث بفرة حب جديد تيمنت به الخلاص لي وللبلدي ، لكن سمير خذلني. ذلك اليوم اطفأت شمسي بدمعي ، وكسرت انجما كبيرة كنت اهتدي بها ، وحطمت حياتي .. فلقد كان سمير هو الاخر جاسوسا حقيرا يعمي ضميره المال ويجعل منه وحشا آدميا ينهش لحم اخيه ويفترس امنه .

وعاد سمير يجذبني الى جواره مرة اخرى ويقول :

ـ لقد عشنا معا اياما جميلة يا أمل ، اياما ساظل احن اليها ما حييت ولن اتخلى عن شعوري الجميل نحوها ، وساحييها اليوم اجمل تحيه . هذه الليلة سافجر اكبر قنبلة في بيروت ، ساهز المدينه من اقصاصا الى اقصاها ، ساهز لبنان .. وربما جوار لبنان ..

وكدت اختنق بكلمات حاولت ان تنطلق من فمي فخنقتها في حلقي.. وتخبط لساني في فمي .. كنت ساقول له ان دوري قد حان لافجر قنبلتي ـ انا ـ الكبيرة قنبلتي التي حبل بها ضميري اياما وليالي كلها سوداء . ولكني خفت ان يتخلى عني هدوئي فافضح نيتي امام عينيه واضيع على بلدي فرصة الاقتصاص من ابنائه العاقين وتبقى شبكه ابي طليقة نشيطة تعبث في « غرغرينه » وتباعد بين ابنائه . « ولكن مهلا يا حبيبي الخائن ، ان هي الا ساعات قليلة وتتنقلون جميعا من بيننا لتجتمعوا منفردين في السجن ، اجتماعا سيكون طويلا باذن الله.. ومن هناك حاولوا ان تخرجوا على دواليب ليراتكم ان استطعتم . لقد انتهت آماد التمزق .. علي وعليكم ياسمير .. وها ان الفرصة تضع امامي راس زعيم زعيمكم ياخنافس .. سالحق الراس بالاذناب . ولن اتراجع هذه المرة .. فالحب ـ يرحمه الله ـ قد مات ، ولقد بكيته على صدرك .. لعلك تذكر ضحكتكالحادة التي نحرته بها آنذاك فقضيت عليه .. وانكبت على ساقيك فتاة طيبة تسترخ فيك فضلة من ضمير وحفنة من رحمة .. ومزقت ذراعي باقدامك ياسمير وتركتني اجهش ..

■

كان كل شيء يتماوج امامي في المقهى وشبح سمير يتلوى وهو يغادر المكان ، صورة مهزوزة تضمحل امامي ، هي اخر الطريق ، طريقي مع سمير ، الان تأكدت انه قد انتهى بالنسبة لي .. قبل لحظات كان لايزال ثمة برعم امل .. ولكنه وئد اخيرا .. ولم يعد امامي غير السراب . وعصرت عيني بجفوني وتنهدت ، كانت الشمس تتشبث باخر حبالها الواهية قبل ان تغرق في البحر . وكان بيني وبينها نهر من الدم قلق ، حزين ، ولهاث الامواج المنهكة يزيد الوحشة في قلبي ويسقي شعوري بوحدتي فينعشه ويلتهب قلبي الى نفحة حب وتهتز يدي شوقا الى لمسة دافئة .. انا بحاجة الى اب جديد او حبيب جديد يبدل كفري بالحب ايمانا به ويأخذ بيدي في طريق جديد واضح ومستقيم وتسرب الى ساقي خدر ثقيل ، لو ان قوة عجيبة تحملني الى دائرة الامن فانفض هناك عن قلبي بقايا ضعف يقلقني انها تتجمع وتتمطى .

واندفعت الى سيارة اخفي نفسي في جوفها ، كنت ارتج في مقعدي بعنف فكاني اعاني تيارا كهربائيا يخلخل جسدي ، وتراءت اشباح المارة من خلال ضباب غشي عيني كانها اشباح متحركة ضائعة الحدود . وتلاحقت انوار الملاهي والمخازن كانها مصابيح تتعقب آثاري . وجه واحد قاسي الملامح لاينفك يطارد رأسي ويرسم في عينيه وعلى فمه خطوط خيبة مريرة .. خيبة اب مجاهد في أعز من لديه ، حصيلة عمره البخيل.

وتروح ابتسامة صفراء ترعش شفتيه .. وتكبر في صدري كلمات رقيقة لم اسمعها في حياتي .. « املي .. لا ! لا اصدق ، ولكنك لا تستطيعين يا ابنتي .. » وابتسامة مستخفة قاسية تتحدى عهدا قطعته على نفسي ان يرى النور تلاحق كبرياني .. ويقهقه سمير .

واغمض عيني .. « بلى أستطيع .. أستطيع .. » ان وطني – أبي الحقيقي – أحق منا جميعا بالحياة .. وهو الذي يحيا ليس انت يا أبي .. وليس سمير ، وليس انا .. ولن يردني غير الموت عن انقاذه، هي لحظات حياة اشتريها بكم جميعا لاجله ..

ولكني احس الموت يلتصق بي ، اشتم رائحته في كل خطوة اختزلها بين ساحة الشهداء وبيني ، رصاصة خرساء ستخترق رأسي هذه اللحظة أو بعد لحظة .. وتنتهي أزمتي ويظل كل شيء يسير في مجراه الطبيعي دون ان يدري احد ماذا كان يحصل لو ان الانسان يغلب الموت او يتحاشاه ، وسيتلوى القاتل بين هؤلاء المارة خفيف الخطى ، هاديء الوجه ..

لعل هذا السائق نفسه من عصابة ابي كان يتربص بي ويحسب حركاتي وسكناتي .. وها اني طوع قيادته يحملني الى حيث يريد .. الى بيتنا .. الى ابي ليرمي بي عنده صارخا « خذها مني ابنتك معقل ثقتك . »

الطريق يبعد واللحظات تتثاءب .. والسيارة تقف ... السير معرقل .. ويتذمر السائق انه على عجل هو الاخر ... كل شيء يتراءى امامي كسولا بطيئا ... اخاف ان يتمطى الوقت فيتمطى ضعفي وينتصر علي في اخر لحظة .. واعود الى حمل الدسائس والمؤامرات الى اخرين اخدر ضميري بالايهام باني لاازال اتحين الفرصة للايقاع بهم .

وتصورتني عدت الى ابي آلة صماء احمل بين يدي رسالة ثقيلة غلافها اسود مجهول المرسل والمرسل اليه واحس يدي لاتقوى على الضغط عليها .. فهي ثقيلة . وتتشنج لها اعصابي حتى لا اعود اقوى على الاحتفاظ بها .. وانحني لالتقطها فاقع فوقها ويرتطم رأسي بالرصيف ويندفق من صدغي الدم ليصبغ الرسالة واسمع لغطا حولي .. همسات فضولية تستفسر عمن تكون هذه التي يغسل الدم وجهها ويديها واجوبة متشفية تقول انها فتاة خائنة قتلت اباها وهذا دمه يلطخ يديها الى الابد .. واريد ان اتحدى واعلن انه دمي .. فلا استطيع ، واهرب لاختفي فاذا الناس امامي في كل اتجاه واحاول ان اخفي يدي ولكني لا استطيع فهما امامي دائما ودم ابي لايزال طريئا لزجا يشد اصابعي الى بعضها .. فادافع عن نفسي واصرخ : « خائن خائن .. » فاذا بها تخرج من فمي كالحشرجة واذا السائق وشاب اخر بجانبه يأكلاني بنظراتهما وأكح وامد يدي الى حقيبتي واضع منديلا على فمي .. ويقول السائق : « هل اوصلك الى مكان معين يا آنسة . »

– الى ساحة الشهداء اذا سمحت .

« الشهداء .. ما أكثرهم في بلدي . كل هؤلاء الناس الذين يدبون على هذه الارصفة سيقضون في المستقبل ضحايا بعضهم البعض . كل شخص منهم احد اثنين : اما خائن يحمل الموت الى الاخرين واما بريء يعيش على موعد مع الموت حيثما اتجه . ولكن ليس فيهم قاتل ومقتول، مثلي انا ، في نفس الوقت . انا اقتل نفسي مرات ومرات في كل مرة كنت انفذ فيها مهمة ، وفي كل مرة يقهقه في وجهي القاتل ويئن في اعماق ضميري المقتول » ..

وكادت ساقاي تخوناني على درج الدائرة المتلوي ..

لقد انتهى الامر ، الان تأكدت اني لن اتراجع ، وادركت ان ابي قد قضي عليه حقا ، ان ارادة القضاء عليه كانت في نفسي منذ اكتشفت حقيقته البشعة .. وكنت على يقين اني لن اقدر على القضاء عليه ، فاتصوره دائما مخذولة كلما راودت رأسي هذه الفكرة ، فكرة القضاء عليه فكيف استغني عنه ومن سيكون نصيري بعد ان افقده في هذه المجتمع الذي يقيم الابناء بالاباء ؟. وها انا الان على الدرج الابيض وليس بيني وبين المدخل الا درجات معدودة ثم اقف امام احدهم لاحكم على ابي بالموت وعلى سمير بالسجن وعلى نفسي بالضياع .

« آه .. لو ان الاقدار ترحمني الان فتشل لساني واعجز عن النطق فينجو ابي .. ابي كان امي وابي .. وعرفاني له يحتم علي ا ن اتجاور عن جميع خياناته مهما عظمت .. فلماذا اتيتها الاقدار كشفته امام عيني ولم تكشفي لرجال الامن هؤلاء عنه ؟.. انا لا اريد ان اكون جار دارك من نوع جديد ... انا اضعف من ان اكون ذلك .. انا »

الدنيا امامي تضمحل وتظلم .. واغيب .

واعادني الى واقعي رائحة أحسستها تحرق انفي . وتنبهت الى يدين قويتين تمسكان بي وتهزانني قليلا . واجتاحتني موجة بكاء فكفكت اضلعي .. وتخيلتني اطعن الشخص الذي رباني عجية صغيرة في ظهره فأرديه قتيلا ثم انكب على صدره صارخة « أبي .. أبي » ..

لم أبك عليه ، بكيت على نفسي بينما كان احد الرجال يشدني من كتفي ويقول ..

– « مابك يافتاة قولي .. »

ولست ادري كيف نطقت :

– « ان ابي جاسوس يا سيدي .. »

– « ابوك من ؟ قولي ... انتظري ... (وتأملني لحظة) انت ابنة ماهر بك سعدون » .

واجهشت وانا اغطي وجهي بيدي . وتراءى لي المستقبل متجهما حالكا وتخيلتني ابحث عن عيشة شريفة فاتيه وأضيع ..

وشعرت يدا رحيمة تربت على كتفي بأبوة حانية . ومن خلال طنين كان يبعدني عنه سمعته يردد بصوت أبوي صاف :

– « بنيتي كدت تقضين على البقية الباقية من اعصابي ، لا تبتئسي يافتاتي ، ليس أباك وحده .. ففيره كثيرون . وبافدامك على نصرة بلدك لاتفقدين أبا . اطمئني ، فالعدالة ساهرة ، وعيوننا مفتوحة دائما. واليوم بالذات هو يوم أبيك وزمرته . فهو يعقد اجتماعه مع اخطر افراد عصابته في البيت . ونحن نترقب هذا اليوم بفارغ الصبر . سمير يخبرنا كل شيء .. فهو عيننا التي كانت تعيش بينكم وترافبكم . »

ورفعت اليه رأسي مندهشة .

– « سمير ؟! »

ومرت لحظات سريعة لملمت فيها أشلاء نفسي وطفوت الى فرحة كبيرة ، لا محدودة ، وكدت اقف امام الرجل وأسأله غير مصدقة : « سمير ؟! »

وألقى الرجل يده الثقيلة على كتفي وربتني بحنو وقال :

– « اجل ، تعرفين سمير ! »

وحنيت رأسي .. وتدفقت في خاطري ذكرياني مع سمير ،وتسابقت متصاوبة نحو نقطة واحدة هي حقيقة شعور سمير الذي لم يتغير نحوي ، كيف لم أفهمه ؟ كيف احتقرته وتخليت عنه عندما توهمت انه تخلى عني وتركني وحدي أشق طريقي الصعب وانا في اشد الحاجة الى يد قوية تأخذ بيدي ؟ وغمرت قلبي موجة دفء وحنان : لقد كان سمير دائما معي ! لم يتخل عني لحظة ، تحداني فشق لي الطريق ومشى معي دون ان اراه .. الى النهاية .

عبد الفتاح الحسن

طبعت على مطابع :

دار الغد للطباعة والنشر

تلفون : ٢٢٢٩٢١